النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني عشر

العادات النصرانيّة بين عرب الجاهليّة وفي اوّل الاسلام

قد شاعت في جزيرة العرب في عهد الجاهليّة واوائل الاسلام عادات لا يمكن تعليلها الّا بنفوذ النصرانيّة واندماجها في القبائل العربيّة . فمن هذه العادات ما هو دينيّ بَحْت . ومنها ما هو شرعيّ . وبعضها مدنيّ واجتماعيّ . فهـا نحن نتتبّع هذه الاقسام الثلثة بالتوالي

١ العادات الدينيّة

﴿ الصلاة ﴾ هي في مقدّمة الواجبات الدينيّة بها يرتفع الانسان عن حضيض عالمه هذا الهيولي الى ربّه وخالقه ليسجد له ويشكره ويستغفره من ذنوبه ويلتمس نعمه . على انّ اهل البادية كانوا في كلّ اطوار تاريخهم قلّما يكترثون لهذه الفريضة كأنّ لسان حالهم يقول مع احدهم (١) :

لا لصـلّي (نصـلّي) ولا لـصوم (نـصوم) ولا لذكر (نذكر) ربّنا حمًا (لمًا) لقوم (نقوم)

فلمّا دخلت النصرانيّة بينهم ألِفت القبائل للتنصّرة الصلاة والدعاء الى الله كما يلوح من عدد الكنائس التي كان النصارى اقاموها في جهات العرب وكما بيّنّا في القسم الاوّل من كتابنا بشواهد مختلفة رويناها عن كلّ ناحية من جزيرة العرب

ولمّا ظهر الاسلام فرض صاحبهُ على تَبَعتِهِ خمس صلوات في النهار فاستعار ذلك ممّا وجدهُ شائعاً بين الرهبان الذين كانوا يقيمون صلواتهم السبع في خمس قومات من

١) اطلب كتاب الكولت لندبرغ Landberg : *Dialectes de l'Arabie Méridionale*

النهار والليل جاء في نقائض جرير والفرزدق (ص٥٢٥) عن صلوات النصارى: «وكانت اخصّ صلواتهم خمساً قال الفرزدق يذكر عجوزاً من بني جعفر عاذت بابيه غالب:

عجوزٌ تصلّي الخمس عاذت بغالبٍ فلا والذي عاذت لا أضيرُها »

واخصّ صلوات المسلمين في طرفي النهار حين يصبحون وحين يُمسون (سورة هود ع ١١٦ وسورة الروم ع ١٧) وهكذا كان رهبان جزيرة العرب يبكّرون الى الصلاة ويواظبون عليها في ليلهم. قال مجنون ليلى:

كأنّهُ راهبٌ في رأس صومعةٍ يتلو الزّبور ونجمُ الصبح ما طلعا

وقال الآخر (اللسان ١٤: ٨٩):

عن راهبٍ متبتّلٍ متنسّلٍ صادي النهارَ لليلهِ متهجّدِ

ومن سُنَن الاسلام (الوضوء) والاغتسال قبل الصلاة. وهي عادة كان سبق اليها نصارى الشرق فتجدها في قوانينهم القديمة. ففي كتاب الايثيقون اي الآداب لابي الفرج ابن العبري بابٌ وهو الثالث من مقالته الثالثة قسمهُ الى عشرة فصول بحث فيها عن طهارة الجسد واحكامها وشروطها كما كانت شائعةً في كنائس ملّته اليعقوبيّة. وذكر الاحواض التي كانت في ساحات الكنائس لإتمام فريضة الوضوء. وقد وصف حضرة الخوري ابراهيم حرفوش في المشرق (٦[١٩٠٣]: ١١٦—١٢٣) احد مخطوطات دير مار شليطا القديمة وفيه قوانين جارية في الاعصار السالفة في ٥١ باباً ورد في احدى صفحاته (ص١٠٨) شروط الصلاة وحدودها على هذه الصورة:

« فاما حدودها (اي الصلاة) وشروطها فانها تحتاج في اوّل شيء الى الطهارة وهو الاغتسال بالماء في إثر الحدث. فان لم يجد الماء فليتيمّم بثلاثة حجار وما زاد عليها حتى ينقي اثر النجوى. ثم غسل اليدين بالنسبة وغسل الوجه برسم الصليب المحيي ويستحبّ ايضاً غسلُ الرجلين في كلّ غداة. فاما من لم يُحدث فلا يحتاج الى الاستنجاء بل يستحبّ منهُ غسل اليدين والوجه وغاية الغسل ان يعمّ الماء الشعر الذي ينسلهُ وعوماً كملاً الخ. (ثم يليه فصلٌ في الاغتسال من الجنابة غسلاً عاماً . . مع الاعتراف الى الكاهن وقبول صلاة الاستغفار) »

ومن شروط الصلاة في الاسلام الاتجاه الى (القبلة) وهي ايضاً عادة مستعارة من قدماء النصارى الذين كانوا يتّجهون في صلاتهم الى الشرق اذ يتّخذون الشمس الشارقة رمزاً عن السيّد المسيح المعروف بشمس العدل والموصوف بالشرق. قال صرمة

ابن أنس قبل الاسلام (كتاب البدء ١ : ٧٦) يصف صلاة النصارى الى مطلع الشمس :

ولهُ شمّس النصارى وقاموا كلّ عيدٍ لهم وكلّ احتفالِ

فاتّخذ محمّد على مثالهم قبلةً للصلاة كانت اوّلًا اورشليم ثمّ حوّلها الى الكعبة في مكّة

وفي الصلاة الاسلاميّة (القيام والسّجود والركوع ورفع الايدي) وكلّ ذلك سبق اليهِ النصارى ووصفهُ شعراء العرب . وقد وصف البعيث رهبان النصارى عند وقوفهم في الصلاة (اطلب الصفحة ١٧٧ من الجزء السابق) :

رجالٌ يُتمّون الصلاةَ قيامُ

وقال المضرّس الاسدي في سجودهم :

ويخال ناجيةَ اليونِ خواذلٍ بجادٍ لبنةَ كالنصارى السُّجّدِ

وقال النابغة الذبياني في الراهب الراكع (تاج العروس ٥ : ٣٦٣) :

سبلغْ مُذرًا ان نجاحًا من امرئٍ الى ربّهِ ربِّ البريّةِ راكعِ

وقال اخر في رفع اكفّهم في الصلاة :

فذا فضلُ ايدي المستغيث المُسبّحِ

واذا تلا المسلمون القرآن لحّنوا فيهِ (بالتجويد) ولعلّهم اخذوهُ عن تلحين الرهبان بالزبور والتسابيح . قال ابن قتيبة في المعارف (ص ٦٨٠) :

كان اوّل من قرأ بالالحان عبيد الله بن ابي بكرة وكانت قراءتهُ حزنًا ليست على شيء من الحان الغناء ولا الحداء فورث ذلك عنهُ ابن ابنهِ عبدالله بن عمر بن عبيد الله فهو الذي يقال لهُ قراءة ابن عُمَر واخذ ذلك عنهُ الاباضيّ واخذ سعيد الحلّاف واخوهُ من الاباضيّ قراءة ابن عُمَر وكان هرون الرشيد معجبًا بقراءة سعيد الحلّاف . . . وكان القرّاء كلهم الهيثم وابن اعين وغيرهم يُدخلون في القراءة من الحان الغناء والحداء والرهبانيّة فمنهم من كان يمسّ الشيء من ذلك مسًّا رفيقًا ومنهم من كان يجهر بذلك » .

فلا مراء انّ القراءة المُحزنة والحان الرهبانيّة تدلّ هنا صريحًا الى نفوذ الغناء الرهباني في التجويد .

ويجوز ان نضيف الى هذا الباب (السُّبحة) التي يدعوها النصارى المسبحة يتلون